تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي

د . ندى موسى عباس
جامعة ديالى / كلية التربية

بسم الله الرحمن الرحيم
تأثير البيئة الطبيعية على الشخصية العراقية

الملخص :

عند ذكر بلد ما يكون الحديث جميلا إذا ما أقترن برموز خاصة به من بيئته الطبيعية فتتزين لوحته في الأذهان بألوان الطبيعة ، فكل بلد هو عبارة عن أرض وسماء وهواء لذا فان أول التأثيرات التي تخضع لها الشعوب هي المناخ والتضاريس ويكون ارتباطها بهما قبل أي ارتباط عاطفي أو ديني أو حزبي على أساس العلاقة السببية بين البيئة والإنسان بكونها عاملا موجها ثقافيا واجتماعيا وحضاريا وتاريخيا ... قال العالم فكتور كزن :" أعطني خريطة لدولة ما ... معلومات وافية عن موقعها ومناخها ومائها ومظاهرها الطبيعية الأخرى ومواردها وبإمكاني في ضوء ذلك أن أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه الأرض وأي دولة يمكن أن تنشأ على هذه الأرض ،وأي دور يمكن أن تمثله هذه الدولة في التاريخ... " .

ورقة العمل هذه تناولت تأثير البيئة الطبيعية للعراق(تضاريسه ومناخه ونهريه دجلة والفرات من الشمال حتى الجنوب) على شخصية الفرد العراقي جسمانياً (لون بشرته وشكل بنيته) وسيكولوجياً (طباعه وسجاياه وشيمه وأخلاقه ومزاجه

ومفاهيمه وطريقة تفكيره) . وهنا تبرز جملة تساؤلات منها ما مدى هذا التأثير ؟ وما حدوده ؟وهل يتباين أم انه على كل العراقيين سواء ؟ هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإجابة عنها على ضوء ما استوحيناه من نظريات هيبو قراط وأرسطو والفارابي والمسعودي وابن خلدون وهوبهاوس ومنها رسائل الفلاسفة مثل مونتسكيو وفكتور كزن ودراسات الباحثين المعاصرين منهم جمال حمدان وسليم مطر وعبد العزيز لازم ومضر خليل العمر وراغب السرجاني وصالح محمد علي وغيرهم ...

الحديث عن العراق ومدنه وشخصية أفراده هو حديث النهرين دجلة والفرات منهما أستمد أسمه وعنوانه وهويته وسمته الحضارية وتربة أرضه وأصناف نباتاته وأنواع حيواناته وحتى وحدة أراضيه. . . فالبيئة في العراق هي المسيطرة على الفرد العراقي وليس العكس والهوية العراقية هي نتاج "الوحدة المكانية " التي كان لها تأثير واضح على "الديمومة الزمانية ". على إن الفرد العراقي عموماً لم يكن في صراع مع بيئته بل انه تشكل وتكيف على نسقها .

أن التنوع في البيئة الطبيعية العراقية خلق تنوعاً في بيئاته الثقافية والسيكولوجية وصفاته البدنية وموروثة الحضاري والاجتماعي لذا لن يكون العراقيين في قالب واحد أو نسق واحد ولن تجمع ثمراته في سلة واحدة ، ولن يروا نوعا واحداً من الإدارة والحكم ، فمناخه مابين شتاء قارص البرودة وصيف قائظ يوحي بالتطرف والتقلب في الميول والأهواء ... ومدنه تنوعت مابين المنبسطة بأرض خصبة ومساحات خضراء وافرة الظلال تمنح سكانها السكينة والسلام ، وبين مساحات وفراغات جرداء توحي بالتمرد والعواصف العاطفية وسلاسل جبلية غزيرة الأمطار ترسم لأهلها طول في القامة وهدوء في الطباع ، وبين هواء طيب صحي ومياه عذبة وعواصف ترابية تنعدم فيها الرؤية وفيضانات مدمرة ، وبين نهر سريع الجريان عكس سماته على أفراده بسرعة الرد والانفعال و"الانفجار العاطفي المدمر " سرعة

الرضا وسرعة الغضب ، وبحر ربط سكانه بالعالم والانفتاح عليه ؛ فأهله نشيطون بالتجارة معروفون بالسفر وكثرة الترحال ...

المقدمة

كيف تؤثر نوعية التربة وطبيعة الجبال أو السهول وأصناف النباتات على شخصية الإنسان وما هو دورها في تشكيل نمط حياته وصياغة أفكاره وخلق حضارته ؟ وإلى أي حد يصل هذا التأثير في سلوكياته وردود فعله وصناعته للأحداث ؟ وما أهمية معرفة ذلك في الدراسات التاريخية وما قيمته العلمية ؟ وكيف يؤثر تباين الفروق بين سكان الجبال والسهول والصحاري والغابات والأنهار والبحار واختلاف المناخ على نفسية الفرد العراقي ؟ هذه الأسئلة وغيرها كثيراً ما ترد في ذهن الباحثة عند دراستها للأحداث التاريخية في العراق وهي تدرك تماماً مدى الحاجة الماسة والملحة إلى المعرفة الجغرافية الجادة لموقع وساحة ومكان الأحداث مما يسمى بالجغرافية التاريخية .

تحاول الباحثة من خلال تركيزها على تأثير البيئة الطبيعية في الناحية السيكولوجية للفرد العراقي معرفة دور التأثيرات البيئية في السمات العامة لشخصية الفرد العراقي ، مما يساعد في فهم نواحي عديدة من تاريخه

الطويل والعريق ؛ وابرز دوافعه النفسية المسببة لثوراته وتمردات الكثيرة التي عجت بها أرضه في مناطق معينة بينما عم الهدوء والسكون في مناطق أخرى ؟ وأجلاء الغموض عن الكثير من الحوادث التاريخية .

لأن البيئة الطبيعية للعراق متنوعة فقد درجت الباحثة ملاحظاتها عن كل منطقة جغرافية من مناطق العراق المتنوعة على حدة فللمناخ والماء والتضاريس في كل منطقة تأثير مختلف عن بقية المناطق ولذا فأن العراق كما يحتوي أعراق و طوائف متنوعة وأديان ومذاهب مختلفة فأنه أيضاً يتنوع بسمات وشخصيات أفراده كل حسب ظروف منطقته الجغرافية ، وتبعا لذلك تنوع المجتمع العراقي (الواحد في هذا البلد الواحد) ؛ وتنوعت شخصيات أفراده السيكولوجية والسسيولوجية والثقافية والحضارية ، والحديث هنا عن صفات عامة لأفراد كلٍ حسب بيئته وموقعه الجغرافي ...

طرحت الباحثة أفكار البحث في العلاقة بين البيئة العراقية وشخصية الفرد العراقي من خلال التركيز على المسائل الثلاث المؤثرة في شخصية الفرد العراقي والتي هي المناخ والتضاريس والمياه (الأنهار) وتنوعت الطروحات لهذه المسائل بحسب تنوع المناطق الجغرافية للعراق ، وقد استندت في أفكارها على ملاحظات وآراء الباحثين والعلماء والكتاب والصحفيين ، وبدأت ورقتها بإعطاء نبذة ممهدة عن أهمية تأثير هذه المسائل في شخصية عموم البشر .

التمهيد

لعل الباحث حسن عثمان هو خير من أوضح أهمية المعرفة البيئية في الدراسات التاريخية برؤيته إن تاريخ الإنسان يتوقف تبعاً ((لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها فالسهول والجبال والصحاري والوديان والأنهار والبحار والخلجان والغابات والجزر... والرياح ونوع الثروة الطبيعية والموقع الجغرافي ...)) فكل ذلك يؤثر تأثيراً واضحاً على الإنسان في ((لغته ونبرة صوته وفي لون بشرته وعينيه وشعره وفي أساطيره وأديانه وفي ملكاته العقلية وفي فكره وفلسفته وصوفيته وفي أدبه وفي موسيقاه وفي هندسته ومعماره وفي علمه وفي طبه ودوائه وفي رسمه وتصويره ونحته وفي خلقه وسيكولوجيته وفي مدنه وحقوله وقراه وفي قوانينه وشرائعه وفي حرفه ومهنته وفي فقره وغناه وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي مذلته وإبائه وفي سير معاركه وفي حربه وسلامه ...)) . [1]

إن الإنسان ومهما بلغت نجاحات التكنولوجية لن يستطيع التخلص من تأثيرات البيئة الطبيعية إلا في حدود أضعافها أو تقليل نسبتها ، فهي على كل حال تدخل في صناعة حياته المادية والروحية والتغاضي عنها على كل حال لن يخدم البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والحضارية فضلاً عن التاريخية ، ونؤيد ما ذهب إليه سليم مطر من إن تأثيرات الأرض الجيوجولية والتضاريس والمناخ وطبيعة المياه والحرارة وحتى الريح والغبار لازالت حتى الآن تتحكم بالإنسان وتؤثر في الأفراد وطبيعة الش .عوب وهي تتراكم عبر ميراث أجياله رغم كل الثورات التقنية . [2]

ترك العلماء والمؤرخ ون العرب المسلم ون والغربي ون ومن الكتاب والباحثين قدماء ومحدثين ومعاصرين عدد غير قليل من النظريات والآراء في تأثير البيئة الطبيعية على حياة الإنسان وبنيته ولا تزال هذه النظريات تمثل الأساس في الكثير من البحوث والدراسات في المجالات المتنوعة ، فعلى سبيل المثال نظرية أبن خلدون بتأثير العامل الطبيعي في توجيه نشاطات الإنسان بمجالاتها الاجتماعية والعمرانية ، فضلاً عن دوره في

تحديد ألوان البشر وأحوالهم وأخلاقهم [3] وإشارة أبن المقفع إلى تأثير البيئة في تكوين اللغة العربية ودورها في تطوير طباع وسجايا العرب ووافقه الفارابي هذه الرؤية ؛ فأرجع الخلق والشيم الطبيعية إلى أثر البيئة والموقع الجغرافي وما يتصل بذلك من مميزات في الهواء والحياة وأنواع النبات والحيوان . [4]

يمكن القول هنا إننا إذا ما حللنا تأثيرات البيئة الطبيعية يصبح من الممكن فهم المميزات العامة للشعوب وتحديد النظم والقوانين الملائمة لها؛ فمونتسكيو مثلاً يعتقد إن المناخ هو السبب الرئيسي في تشكيل المميزات الفيزيقية والحضارية للمجتمعات المختلفة ، [5] كما إن الفروق بين الأجناس ترجع لتأثير البيئة الطبيعية على الإنسان نفسياً وعضوياً وذلك وفقاً لما يؤكده العالم الألماني هردر . [6] كما يمكن تبين مدى تطور المجتمع وتنميته بملاحظة مدى التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية التي يراها ، وفي هذا الخصوص نعتبر كتاب المدينة والمناخ للعالم الأمريكي هنتوكت من البحوث الجديرة بالاهتمام ، فهو يعتبر المناخ وحده كعامل يقرر نوعية وكمي.ة مدني.ة كل مجتمع من المجتمعات في جميع المجالات [7]. وعموماً فإن النظم الحضارية هي استجابة ميكانيكية لبيئة الإنسان الطبيعية وهي التي تمده بالمادة والروحية التي تنطبع بتا حضارته ، ومع إن موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة قديم ومنذ عهد النهضة الأوربية ، [8] وكذلك مسالة الربط بين البيئة وصناعة الحضارات ، إلا إن جمال حمدان قدم لنا بعداً جديداً للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان فهو ينظر لها بشكل متوازن فلا ينحاز إلى طرف على حساب الآخر ، ففي رأيه إن العلاقة بين الإنسان المصري ونهر النيل مثلا هي التي أدت إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهي ن المادي والروحي ... [9] والبعض من الفلاسفة منهم توركو أعتبر الحضارة ما هي إلا تفاعل العوامل الجغرافية والحياتية والسيكولوجية . [10]

إن درجة التفاعل بين الإنسان والبيئة تزداد كلما زادت المعرفة الإنسانية ودقة التنظيم الاجتماعي في محاولاته لتخفيف أثر الطبيعة عليه ، وفي كل الأحوال لن تعمل العوامل الطبيعية تأثيرها في الإنسان بشكل منفرد إنما تكون ملازمة للعوامل البيولوجية وهما يعملا معاً ولكن بخطين مستقلين ومتوازنين فلا البيولوجية تلغي عمل الأولى ولا الطبيعية تطغى على الثانية ، وثمرة عمل الاثنين تظهر في السمات(الصفات) الشخصية للإنسان (مزاجه وسلوكياته وسكناته ونشاطاته وقدراته الذهنية والفكرية وطريقة معاملته لنفسه) التي تميزه عن غيره قليلا أو كثيراً ما لايمكن أن يشبهه في ذلك إنسان آخر إلا نادراً . وفي ذلك فإننا نذهب مذهب توينبي في كون جميع العوامل البيولوجية وعوامل البيئة لا يمكن أن تعمل كل بمفردها فهي كلٍ متعدد وليست كلاً مفرداً ، ومع إنهما لا يملكان عوامل مشتركة إلا إنهما يتضافران ليعملا بتناغم واتساق متكاملين فيؤلفا نمطاً من العلاقات بينهما ، [11] ونرى أن هذه العلاقات المتأثرة بخصوصية البيئة الطبيعية والاجتماعية تخرج لنا بميزات تقرر الاختلافات بين الشعوب .

الشخصية العراقية والبيئة الطبيعية

في تصورنا إن العراقي أبن بيئته متجانس معها متشكل على نسقها متكيف مع ظروفها ، يعمل متحداً معها لا متحدٍ لها وحضارته هي نتاج

انسجامه السيكولوجي معها ؛ فبيئته قد وفرت له إمكانيات لعيشه مريحة وسهلة ولكنه السهل الممتنع ! فهذه البيئة مشكلتها إنها متقلبة تخبئ له الكثير من المفاجأة المنغصة التي تجعله يعيش في ضغط نفسي ما بين كدرٍ وسرور ، أي لابد لنيل العسل من أبر النحل ومن المؤكد إن ذلك ترك أثره الواضح في شخصيته ، وهذا التصور متأتي من وحي نظرية توينبي في الاستجابة والتحدي إذ تكون البيئة هي المسيطرة على الإنسان وعليه أن يحصل على بعض المهارات التي تمكنه من تحدي ظروف بيئته الطبيعية . [12] ونحن نرى هذا التحدي هو نوع من التأقلم ومحاولة غير مباشرة للانسجام مع واقع البيئة ، وعادةً ما يكون هذا التأقلم نسبياً مع الظروف المتنوعة للبيئة .

يقع العراق عند أبن خلدون في الإقليم المعتدل الوسط بين المنطقة الحارة والباردة ، ولذلك فهو في أفضل المناطق لحياة الإنسان ولحضارته ، وإن ((مناطق العرب هي في الأقاليم المعتدلة وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقا وأدياناً حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثةٍ في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختصُّ بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم يتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله كنتم خير أمة أخرجت للناس)) ويستمر في وصفه لهذا الاعتدال بقوله ((فهم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغمون في أسجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضه والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ... ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة

ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات)) .
(13)

تقسم البيئة الطبيعية العراقية إلى ثلاثة أقسام فبيئة جبلية وشبه الجبلية وتضم **المحافظات الشمالية** : السليمانية وأربيل وزاخو ودهوك والموصل وكركوك وتكريت، وبيئة سهلية منبسطة ورسوبية لها امتداد من الغرب في البادية الصحراوية وشبه الصحراوية والجزيرة (مابين دجلة والفرات) ، وبيئة منبسطة اعتبرناه مركز الوسط : بغداد وديالى ، وبيئة *تنوعت بين منطقة* صحراوية ومنطقة شواطئ النهرين وسواحل الخليج فهي تمثل **محافظات الوسط والجنوب** : الأنبار وبابل وواسط والنجف وكربلاء والديوانية والمثنى وميسان وذي قار والبصرة .

لقد صنعت لنا البيئة العراقية المتنوعة هذه مهن معينة كل حسب منطقته البيئية وطريقة الري فيها ونوع المحاصيل المزروعة وبالتالي فان ذلك يعني شخصيات متنوعة في السلوكيات والتفكير والاهتمامات والنظرة للحياة وقيمها كالمال والكرم والبخل ونوع الملبس وأسلوب العيش وغير ذلك ...؛ فضلاً عن الاختلاف في البنية الجسمانية ؛ فمزارعي الفواكه والتبغ في الشمال لهم نمط من الشخصية مغاير لنمط شخصية مزارعي الفواكه من فلاحي البساتين في بغداد وديالى ووسط العراق والبصرة ، كما تختلف بالتأكيد عن نمط مزارعي الحنطة والخضروات في السهول والوديان وعن نمط مزارعي الشلب في مناطق الفرات الأوسط وعن رعاة الإبل والأغنام في البوادي والصحراء وكل هؤلاء يختلفون عن نمط سكان الأهوار مع إن الجميع لهم خصائص وسمات مشتركة عامة كهوية عراقية ومؤثر بيئي موحد متمثل بنهري دجلة والفرات. (14)

المنطقة الشمالية :

إن منطقة شمال العراق أرض معطاء جميلة خلابة تشكلت من الجبال والوديان والغابات والشلالات والسهول الرسوبية الخصبة وتربتها الجيدة ومياهها الوفيرة ونباتاتها المتنوعة كل هذه الرفاهية غير المحدودة انعكست بوضوح على شخصية سكانها فقد تميزوا بالصدق والذكاء والقوة والشجاعة والجرأة والصبر واحترام الغير وحب للعلم وقد برز منهم أسماء لامعة نذكر منهم المشاهير المؤرخ أبن الأثير وأخوته وأبن خلكان ومحمد كرد علي وغيرهم في مجال السياسة والنشاط العسكري كثيرون إذ كانت القوى الحاكمة في العراق تفضلهم كمقاتلين في جيوشها خاصة وبشكل واضح في عهد الخلافة العباسية ، أما الروح المرحة فما أراها إلا انعكاس لجمالية المنطقة التي أعطتهم صفاء في الروح وطمأنينة في النفس ، ونفترض أنهم على الدوام قوة في الصراعات التي يشتركون فيها ؛ ولكنهم لا يصنعوها على أية حال ، كما إن حضارتهم تستند إلى ما تجود به بيئتهم وهي الغنية خاصة من ناحية فن الألوان فانعكست بملابسهم الفلكلورية ذات ألوانها الزاهية البهيجة ، والأصالة في الحرف اليدوية وطرق تخزين المواد الغذائية للشتاء البارد والطويل . . .

وما نراه هو اعتقاد قديم فكل من هيبوقراط (الجو والماء والأقاليم) مونتسكيو (روح القانون) يرون أن سكان الجبال ذات المناخ البارد والأمطار الغزيرة يتصفون بالطباع الحميدة ونقاء النفس والقوة الجسدية والشجاعة ، و أما سليم مطر فنجده يشير إلى إن سكان المنطقة الشمالية يسود بينهم نمط البحر المتوسط حيث الرأس الدائري المربع وهو نمط الآسيوية (القفقاسي والأناضولي والإيراني والكردي والتركستاني) وللبيئة الجبلية تأثير في تقوية عضلات الأرجل ، [15] وهم يميلون إلى الصرامة والحذر والروح العملية والحربية فحضارتهم خير شاهد الآشورية إذ تمثال الإله آشور إله الحرب والقوة وغيره من التماثيل التي تجسد صور البطولة والمعارك الحربية الشامخة وفي العهدين العثماني والملكي ظهر واضحاً

سيادة الروح العسكرية بين عامتهم ، [16] وتمنح الجبال والتلال والهضاب عادةً نوع من العزلة تساعد الناس في الحفاظ على أصالة لغتهم وتراثهم وخصائص شخصيتهم حيث يتحدد اختلاطهم فضلاً عن صفاء ذهنهم ، كما تحدد طبيعة الحياة بالجبال شكل أجسامهم ، ومع كل ذلك فان لهم خصوصية تجمعهم مع باقي العراقيين . [17]

العاصمة بغداد :

تميزت بغداد بموقعها الجغرافي الوسط بين البيئات الطبيعية العراقية ؛ تتصل بالشمال والجنوب بنهر دجلة وقربها من نهر الفرات منحها اتصالا بالوسط ؛ فأصبحت وسطاً حضاريا وسياسيا واجتماعيا ؛ فهي تمثل كل العراقيين في الدولة فأهلها يجمعون بين صفات البيئات الطبيعية ومميزات الأفراد،وكان منتهى الذكاء من أبي جعفر المنصور وخيارا مناسباً لكل العصور ، ولعل هذا هو سر نجاح العباسيين في عهدهم الأول ؛ فبغداد مجمع الأسواق ومركز تجمع الأفراد من مختلف البيئات والذين ما يلبثوا أن ينصهروا في مجتمعها المتنوع المفتوح، ومحفلها الثقافي والسياسي والاجتماعي أعطى لسكانها من الناحية السيكولوجية بعدا ايجابيا مثيراً ومنشطا منحهم روحية الإبداع الحضاري ، مع ما يتخلله من جدل وخلاف وتوتر وصراع . إن هواء بغداد نقي وماءها عذب وتربتها خصبة فخضرتها وافرة وهذه عوامل ترق الطباع وتفتح القرائح فهذا شاعرنا علي بن الجهم يقدم على الخليفة المتوكل العباسي فيمدحه بقصيدة ملؤها صوراً من بيئته الصحراوية الخشنة الجلفة ،فما كان من الخليفة إلا أن أسكنه في أحد قصوره ببغداد ليتحول بشعره ب .عد مدة إلى ش .اعر يقطر رقة وعذوبة في أوصافه ومعانيه وتصويره . [18]

منطقة ديالى :

هي منطقة بساتين على الأعم الأغلب وقد ساعدها في ذلك نهر ديالى القادم من منطقة جبلية مرتفعة على إن أهم خاصية فيه هو إنه ينخفض بمستواه تدريجياً فينساب بهدوء لتخرج منه قنوات عالية تصلح لإسقاء البساتين سيحاً وفي الوقت نفسه فإن نهر ديالى التي أخذت المنطقة تسميتها منه هو مبزل للبساتين إذ تصب فيه المياه المتبقية منها . ويلاحظ إن مجرى الأنهار الأخرى كخريسان وغيرها كانت ثابتة على الدوام وهذا ضمن لمدنها القدم فلم يطرأ عليها تغيير كبير من حيث مواقعها وأسماءها فغدت محطات آمن .ة في فترة الحوادث التاريخية التي كان يمر بها العراق . وإن هذه الميزة أضفت على شخصية سكان المنطقة طابع الهدوء فلا مفاجئات ولا كوارث ولا قلق من مشاكل طبيعية فمالوا إلى الدعة والوداعة والمهادنة والطمأنينة والسكينة (حد الجمود في أحيان) والتفاؤل والوسطية وحب الحياة وطول البال .

منطقة الوسط والجنوب : –

المنطقة الرسوبية وسط وجنوب العراق هي كما يعتبرها علي الوردي – البودقة الرئيسة – ففيها تبلورت شخصية الفرد العراقي التي تميز بها بشكل عام فهي موطن أقدم الحضارات العالمية وهي – منطقة السواد – التي رآها العرب المسلمين مزدحمة بالخضرة والزروع والسكان ، وهي – مخزن غلال العالم – كما يحلو لبعض الباحثين وصفها لذا نجدها الأكثر

ازدحاما بالأحداث التاريخية مليئة بالحياة الصاخبة لا تعرف الهدوء أو الدعة ، مع كل ما تحتويه من غنىً ولذلك أسباب وإذا عرف السبب بطل العجب !

إن أرض نهري دجلة والفرات شديدة الانحدار وهذا هو سبب قوة جريانهما وخاصة نهر دجلة (خمسة أقدام في الميل الواحد) فلهما قدرة عالية وكبيرة على كس ر الس‌دود واجتياح الأراضي الزراعية المجاورة . (19) الجريان بقوة شديدة تستطيع بها أن تحدث كارثة بتكسر السدود واجتياح الأراضي الزراعية المجاورة ، كما إنهما يرتفعان بدون سابق إنذار وسلوكهما دائماً مفاجئ ، أما فيضانهما فيحدث في آذار ونيسان وأيار وهو موسم متأخر جداً بالنسبة للزروع الشتوية ومبكر جداً بالنسبة للنباتات الصيفية ، وإنهما رغم عذوبة مائهما ينتهيان بكثير من الطما والأملاح المحلولة لأنهما يجريان بين صحاري جبسيه وأراض مالحة ، (20) وهما في تبدل مستمر بخط سيرها إذا لم تكرى من كميات الغرين التي تترسب في قعر مجراها ، وهو كثيراً ما يحدث عبر مراحل التاريخ بسبب الاضطراب السياسي أو ضعف الحكومات ، مما يعني توالي اندثار في مدنها لتظهر مدن جديدة أو تظهر الأهوار ، ويرافق ذلك أيضا ظهور الأراضي السبخة (الأراضي المالحة) بسبب غمرها بالمياه وما تتركه هذه المياه من ملوحة وهي مشكلة زراعية كبيرة تحتاج دائماً إلى كري الأنهار وإصلاح الأراضي وتنظيم الري .

عند السفر بين بعض المحافظات تبرز لسكان المدن في طريقهم أراضي قفر جرداء وكأنها من أطراف الصحراء ثم فجأة تقفز أمامهم البساتين والخضرة المحاذية للأنهار وهكذا الأمر كلما أرادوا السفر يعانون من برد شتاءٍ قارص ومن حر صيفٍ قائظ ، هذا الأمر أنعكس على نفسية العراقي في الانتقال من حالة إلى حالة فهو في تغير مستمر وتلون لا يعرف الاستقرار والثبات ، أما سكان الصحراء أو أطرافها فتعودوا على طرق واحدة في الصحراء إذا ما غيروها تعرضوا للمخاطر أو الهلاك فهم يسلكون طرق

أجدادهم لا يغيروها لأنها بنظرهم توصلهم إلى الواحات والعيون انعكس ذلك في عقلهم الباطن فهم متشددون في الآراء ويخشون التجديد في أي ميدان من الميادين حديون ويتعاملون بقسوة .

يعتقد الكثيرون إن الشخصية العراقية هي شخصية خلافية متناقضة [21] وفي نفس الوقت فهي شخصية ذكية يقظة نشطة حماسية تمجد القوة لا يفوتها الانتباه إلى العواقب وأن كانت تهدر الكثير من طاقاتها هذه في سلبيات اجتماعية ، إن الطبيعة العراقية لم ولن تعطي العراقي شعور بالطمأنينة فهي متقلبة غير مستقرة وبالتالي ليست جامدة تتغير بسهولة وبسرعة وهذا لن يمنحه الهدوء أوالمهادنة ولا التفاؤل والوسطية ، وهذا هو السر وراء ثوراته وعدم مسالمته للحكومات ، وهو في ذلك مختلف تماما عن شخصية أخيه المصري . [22]

يقول المراياتي إن الشخصية العراقية هي شخصية ((قلقة مضطربة متطرفة حذرة ولكن قلقها قلق وادع واضطرابها اضطراب منتج واستجاباتها استجابات مبدعة وتطرفها قاس لا يعرف الوسط أما ثورة وتمرد وعصيان أو خضوع وسكون وخنوع على أن هذه السمات والصفات والقدرات لاتبدو على وتيرة واحدة عند كل الأفراد نظراً للعوامل الأخرى البيولوجية والنفسية والاجتماعية ...)) . [23] ويتساءل الكثيرون عن غلبت العصبية والتوتر في مناقشات العراقي وعدم مناقشته الأمور في هدوء وروية دون أن يفقد صبره وينفعل ويس ب ويكفر ويخوّن ؟ ولماذا لا يقلل من سرعة رده وتفريطه في الغضب والانفجار العاطفي المدمر وتقلبه المفاجئ من المباركة المفرطة إلى اللعن المنهمر كالشلال ؟

يعتقد الجيزاني إن ميل العراقي إلى العنف والتعصب في حل أغلب نزاعاته لها أسبابها لعل من أبرزها الطبيعية والمناخية ، [24] وعلى العموم نرى إن هذه الظاهرة يشترك ب ها العراقي مع الكثير من أفراد المجتمعات

المجاورة لبلده ؛ [25] فالملاحظ إن في مراحل الانتقال بين الفصول الأربعة يكون هناك اتساع حراري ما بين ارتفاع شديد وانخفاض شديد .

نؤيد تماما ما يراه سلام عبود من إن الوردي خلط في نظريته العوامل النفسية بالبيئية وهو ما تسبب في التداخل بين الأسباب والنتائج ((المتعلقة بسلسلة الأفعال والنوازع)) ؛ فالغضب والحقد واستسهال امتهان الضعيف إلى حد السادية وتمجيد القوة صفات سلوكية وتعبيرات نفسية ، لاتخلق الازدواج بل ترافقه وتعمقه وهي أعراض تشير الازدواج الأساسي، وهنا يظهر تنازع الشخصية بين قطبين ((العنف وكل مايرافقه من مشاعر متنوعة ؛ الانفعال السريع الغضب ،التكبر ،المفاخرة الكاذبة ،الصلف التحجر العقلي والحقد واللؤم والخضوع وما يرافقه من أحاسيس ونوازع الكبت التزلف الكذب المصانعة النفاق)) وهنا نلاحظ إن ((النقيضين يقودان من منطلقين نفسيين متعاكسين إلى نتائج سلوكية متشابهة ؛ الميل إلى اللؤم والحقد وفقدان الثقة بالآخرين، مقروناً بالعنف والتلذذ بالضعيف واستسهال الإيذاء والإسراف في الطموح في الصنف الأول وفي الثاني مقروناً بالخنوع والميل إلى المصانعة والوشاية والتشفي والانتقام والاعتماد على الغير والإسراف في الخيال)) . [26]

أمتهن الكثير من سكان المحافظات الجنوبية إلى عهود قريبة مهنة رئيسية هي الزراعة وكانت البيئة هي السبب وراء هذه المهنة فوجود مساحات الأراضي المنبسطة المفتوحة الصالحة للزراعة وتوفر الموارد المائية والمناخ المناسب للنمو ، وقد تكيف الكثير من البدو على مهنة الزراعة ممن فضلوا السكن في المدن وتركوا حرفتهم التقليدية الرعي ، [27] ولوحظ أن بشرتهم تغلب عليها السمرة المتأثرة ببيئة منطقة الخليج والمحيط الهندي وحيث الرأس المستطيل ، ويعتقد سليم مطر أنهم يميلون إلى اللين والارتخاء والروح الخيالية والدينية ، [28] كما ثبت من قرون هيبوقراط إن سكان الأقاليم المكشوفة الجافة يتصفون بنحافة القامة وحب التحكم ، أما

مونتسكيو فيرى إن أهل هذه المناطق يميلون إلى النظام الملكي !! وإذا وقع عليهم حيف أو ظلم فأنهم قد يتقوقعون ليحمون أنفسهم إلا إنهم سرعان ما ينتفضون لينتصروا لأنفسهم . [29]

تعد منطقة البصرة أعظم مزرعة للنخيل والذي ساعدها هو مد وجزر الخليج العربي في سقي البساتين سيحاً (مداً) وكان الجزر هو مبزل يصفيها من الأملاح قليلاً أو كثيراً ، أثرت فيها أكثر بكثير من تأثير النهر والبساتين على أهل ديالى ، كما ترك شط العرب (ملتقى النهرين) تأثيره على البصرة بشكل واضح فهي نهرية بحرية (عراقية خليجية) فأهلها يميلون إلى تذوق المغامرات البعيدة المرتبطة بالتجارة وحب الرحلات الاستكشافية ، ومن تراثها قصص السند باد البحري أو البري ، وما سجله الكتاب العرب المسلمين في وصف حالة التغرب عندهم في الأصقاع النائية لفترات طويلة بسعيهم في التجارة ؛ فتجارهم أغنى التجار والأكثر حيوية ونش.اط ؛ وفي ذلك يقول الجاحظ وهو من أهلها : ((ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصري ...)) ، [30] وقد عرفوا بسبب ذلك بشدة الترحيب بالغريب والحفاوة به وبإكرامه، ومن تأثيرات النهر (أو البحر) يعتقد إن امتهانهم لحرفة صيد السمك تصبح عندهم قوة في عضلات أيديهم . [31] ومن صفاتهم السلوكية التي يمكن ملاحظها إ بالقياس من تفسير أبن خلدون لأثر المناخ في طبائع الشعوب أن ارتفاع درجات الحرارة تجعل الناس يصبحون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطا وطرباً .[32]

عن منطقة الأهوار وقف الرحالة غافن يونغ حائراً في وصف إنسانها ((وطبيعتها الجغرافية وامتداداتها التاريخية إلا إن مجمل حصيلة كشوفاته التي توصل إليها من عيشه الطويل فيها وتعمقه في دراسة ظروفها قد سجلت عوامل التكوين النفسي والفكري لسكان الأهوار في ثلاث مجالات وهي الجغرافية والتاريخ والواقع الراهن ...)) ويستمر في حديثه عن عرب

الأهوار بأنهم شجعان في الأزمات وعندهم نوازع تحدي الخطر الذي نتج عن البيئة الطبيعية . (33)

الهوامش

1 ـ منهج البحث التاريخي ، دار المعارف، القاهرة ، ط 7، 1996 ، ص 33 .

2 ـ مطر ، سليم : مقالات في الهوية (الحوار المتمدن) ، Salim@Salimmatar.com العدد : 666 ، 2003/11/28 .

3 ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، د. ت ، ص 82 .

4 -مكي ، يوسف : جدلية الجغرافية والتاريخ ، مجلة الخليج الإماراتية ، الخميس 6 / آذار ، 2008 ، المركز الإعلامي لجماعة الأخوان المسلمين في سورية ، 2008/4/16 .

5 -م . ن والموقع .

6 -شكارة ، عادل عبد الحسين : نظرية هوبهاوس في التنمية الاجتماعية وتطبيقاتها على سياسة تنمية المجتمع العشائري في العراق ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، 1975 ، ص ص 228 – 229 .

7 -م . ن والصفحات.

8 -م. ن والصفحات.

9 -الكبرتي،عبد الستار : قصة الإسلام ، إسلام اون لاين نت 2001/4/19- 20/ / 2007 webmaster@islamstory.com ، جغرافيون ، جمال حمدان ، الثلاثاء ، 20 / نوفمبر / 2007 م .

10 -شكاره : م . س ، ص 426.

11 -كاشف ، سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط2 ، 1976 ، ص39 .

12 -إسماعيل ، محي الدين : تويتبي ، وزارة الأعلام ، بغداد ، بلا رقم طبعة ، 1977 م ، ص ص 53 – 62 ، صبحي ، أحمد محمود : في فلسفة التاريخ ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، بلا رقم طبعة ، 2000 م ، ص ص 267 – 275 .

13 -أبن خلدون : م . س ، ص 85 .

14 – عبود ، سلام : مقدمة لدراسة الشخصية العراقية ، moilto: Salam333000@ yahoo. Se ، الحوار المتمدن ، العدد : 1766 ، 12 / 16 / 2006 .

15 – *مطر : م . س والمكان .*

16 – م . ن والصفحة .

17 – م . ن والصفحة .

18 – ديوان علي بن الجهم

19 – مطر : م . س والمكان .

20 – عبود : م . س ونفس المكان .

21 – المهدي ، محمد : الشخصية المصرية ، 26 / 3 / 2007 .

22 – حميد، علاء : إشكاليات بناء النسق الايكولوجيفي ، العراق اليوم ، أفاق إستراتيجية ، Thursday/ JUL/07 ، ص ص 1–7 .

23 – كاظم : التسامح في المجتمع العراقي ، النبأ ، جمادي الأول ، العدد 72 .

24 – م . ن والمكان .

25 – عبود : م . س والمكان .

26 – السرجاني ، راغب : الجغرافية ، الحضارة العلمية ، موقع قصة الإسلام ، 1 / 5/ 2006 .

27 – مطر : م . ن والمكان .

28 – م . ن والصفحات.

29 – م . ن والمكان .

30 – التجارة ، ص79 .

31 – مطر : م . س ، ص ص 5 – 6 .

32 – ابن خلدون : م . س ، ص 86 .

33 – لازم ، عبد العزيز : العودة الى الأهوار ، محاولة لدراسة شخصية ساكن الأهوار العراقية ، الزوراء ، 7 / 4 /2008 .

34 –ممكن مراجعة عدد آخر من المراجع التي لم تسعها الهوامش مثل : الوردي ، علي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، منشورات سعيد بن جبير ، قم المقدسة ، ط1 ، 1426هـ / 2005 ؛ مزيري ، شرعبان ، جماليات الطبيعة في كوردستان العراق وأثرها في الرسم العراقي المعاصر ، موقع منتديات كورد ميديا .